

الخطاب التعليمي الجامعي في ظل المسببات التربوية الحديثة

أ.بوسغادي حبيب

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب، عين تموشنت

تقديم:

هذا البحث يعالج قضية هامة، تتمثل في استنهاض الهمم وتوفير الوسائل اللازمة من أجل بناء رجل المستقبل القادر على تحمل مسؤولياته اتجاه مجتمعه وأمته، وإذا أردنا تحقيق ذلك لابد من تغيير نمط الخطاب التعليمي الذي نصّده لهذه الأجيال، من هنا لزم طرح الأسئلة الآتية: أي خطاب تعليمي هذا الذي نريد؟ وهل الخطاب الحالي قادر على صنع رجل الغد؟ أم لابد من تغييره ومحاكاة الأفضل منه؟ هذا ما سنعرضه من خلال طرح تصور حول هذه القضية.

كلنا يعلم أننا نعيش في عالم متغير ومتسارع لا يحكمه زمان ولا مكان، ويتجلى هذا التغيير والتسارع في عدة مجالات، لعل أبرزها الجانب التقني والتكنولوجي، ثم يليها جانب العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ونحن كحلقة في هذا العالم اضطررنا بأن نتأثر بهذه الحركية، فرحنا نواكب هذا التطور ونتنظر ما يأتي من الضفة الأخرى - بعجره ويجره - بحكم أن المغلوب مولع بتقليد الغالب على حدّ تعبير ابن خلدون.

لابدّ قبل تأسيس هذا التصور وطرحه للمناقشة أن نؤكد على شيء مهم، ذلك أنّ جيل اليوم ليس هو بجيل الأمس، ووسائل ومنشآت اليوم ليست كوسائل ومنشآت القرون الماضية، وخطابات أمس ليست بخطابات اليوم، سواء أعلق الأمر بمضمونها أم بغاياتها.

ذلك أنّ الخطاب الذي يجب أن يُؤسّس له ويبنى على قواعد صحيحة مُصدّرةً بالأهداف وتحقيق النتائج هو الخطاب التعليمي الذي كلنا نشده في مدارسنا وجامعاتنا.

لعل سائلا يسأل ويقول: أيّ خطاب فعال نريد؟ وهل تحقيق الأهداف مرتبط بنوعية الخطاب؟ أقول نعم، لكن قبل ذلك لابد من فهم أولاً هذا المستورد المسمى نظام (ل.م.د) فهما صحيحا، وتهيئة البيئة والجو المناسب له على غرار القاعدة التي سطرها مالك بن النبي (رحمه الله) وهي: الإنسان والوقت والتراب، التي بفضلها يستطيع الإنسان أن يصنع حضارة.

فالجزائر مثلا عرفت مناهجها التربوية إصلاحات عدّة وعلى فترات متعاقبة من الزمن، كان آخرها التدريس وفق نظام المقاربة بالكفاءات، لكن هل استطاعت هذه المناهج المتتابعة تترا تجسيده على أرض الواقع؟ أعود وأقول أنّ الإشكالية ليست في المناهج بقدر ما هي في الوعاء الذي يجسد هذه المناهج.

ولابدّ هنا من فتح قوس ونقول: لماذا نجحت بعض هذه المناهج
- على غرار نظام ل.م.د- في بلدانها؟ هل الإشكال في أنّ إنساننا
غير إنسانهم، أم في تربيتنا غير تربيتهم أم في وسائلنا غير وسائلهم؟
أقول إنّ المشكلة ليست في هذا ولا ذاك، وإنما في القالب
القادر على أجرأة هذا النظام أو ذاك وفق خطاب تعليمي مبني على
أسس محكمة ورسينة.

فمن هو الوعاء القادر على إنتاج الخطاب التعليمي المؤثر
والمفيد؟ إنه الأستاذ الجامعي، ذلك أنّ الحديث عن الدراسات العليا
وكيفية انتقاء المرشحين للدراسة فيها تنتصب أمامنا صورة عضو هيئة
التدريس في الجامعات، وحينما نريد الوقوف عند أهم خصائص
المدرس الجامعي فلأننا نريد أن نضع نصب أعيننا الأنموذج
المستقبلي لهذا التلميذ.

إنّ الدور الذي يقوم به عضو هيئة التدريس بالجامعة يوضح لنا أنه
مصدر العطاء في العملية التعليمية، فهو المعين الذي ينتج المعرفة
والعلم، ويثوّر عقول الطلبة ويدفعهم إلى المساهمة في بناء العملية
التعليمية وهو ما نصبو إليه في نظام (ل.م.د)، لذا " ينبغي أن يكون
غزير العلم، متجدد المعرفة باستمرار ملاحقا لكل جديد ومتطور في
فروع تخصصه، كما ينبغي له أن يكون قادرا على توصيل المعلومات
والحقائق إلى طلابه، مدركا لعقولهم ومستويات التقبل لديهم، عالما
بخصائص هذه المرحلة من العمر ومتطلبات الحياة وحاجات الأفراد

فيها، متخذاً من الطرق والوسائل ما يؤدي إلى أن يكون مردود العملية التعليمية أكبر من حيث نوعية الطالب المتخرج⁽¹⁾.

من هنا كان لزاماً لعضو هيئة التدريس أن تتحقق لديه ثلاثة أبعاد أساسية تشكل بموجبها مثلثاً قوامه: التدريس، البحث العلمي، وخدمة المجتمع.

إنّ نظام ل.م.د قد فرض علينا أن يمر الطالب في سنواته الجامعية عبر ثلاث مستويات:

المستوى الأول: مرحلة الليسانس.

المستوى الثاني: مرحلة الماجستير.

المستوى الثالث: مرحلة الدكتوراه.

وانطلاقاً من هذه المراحل الثلاث حتّم علينا هذا النظام أن نغير من نمط الخطاب وأسلوبه مراعاة للمستوى الذي ينتقل فيه الطالب في كل مرحلة، فالخطاب الذي يتلقاه طالب السنوات الأولى خاصة الملتحق حديثاً بمقاعد الجامعة ليس هو نفسه الذي يتلقاه طالب الماجستير، وليس هو نفسه الذي يتكون فيه طالب الدكتوراه، من هنا لزم تغيير الخطاب.

فمثلاً إنّ الدراسات العليا (طلبة الدكتوراه) تهدف بشكل عام إلى تطوير المعرفة وإثرائها وإعداد فئة مؤهلة تأهيلاً عالياً تماشياً واحتياجات خطط التنمية⁽²⁾.

فدراسات ما بعد الماجستير إذن ليست استجابة لرغبات الأفراد الطموحين فحسب، بل لسد احتياجات المجتمع وتلبية لقطاعات مختلفة فيه.

ويأتي في المرتبة الثانية المناخ العلمي والبحثي للطلبة، فحين يجد الطالب الجامعي المناخ العلمي والأكاديمي فإن ذلك سيحفزهم ويدفع بهم إلى الإقبال على الدرس والمتابعة بشغف ونهم، وبالتالي يحجب إليهم الدخول إلى صومعة البحث العلمي والانغماس فيه، ولكي يتحقق ذلك لابد على الهيئة الوصية والقائمة على شؤون المؤسسة توفير المستلزمات الأساسية والضرورية، ولعل من أبرزها:

- فتح الأبواب لهيئة التدريس من المختصين والخبراء المعروفين بكفاءاتهم ومستواهم العلمي.

- أن تعمل الجامعة جاهدة على تطوير ومتابعة العناصر التدريسية والمساعدة، وذلك من خلال إلحاقهم بدورات تكوينية، وإشراكهم بالمؤتمرات والملتقيات والزيارات العلمية الميدانية.

- لابد من إغناء مكتبة الجامعة بكل ما هو جديد من بيبليوغرافيا كمية ونوعية، وتيسير سبل الاستعارة، وكذا تهيئة الجو الملائم للمطالعة والبحث.

- تهيئة المختبرات والورشات العلمية، وتزويدها بكل ما استجد من الأجهزة الحديثة⁽³⁾

- إجبارية التحدث باللغة الأم للأستاذ والطالب على حدّ سواء بغية تحقيق الخطاب الذي نصبو إليه، وإننا نعتقد أنّ غياب لغة التواصل الصحيحة لا يحقق إلا الرداءة.

- ربط الجامعة بشبكات المعلومات (الأنترنت) وغيرها من مراكز البحث العلمي في الجامعات قصد الاحتكاك وتبادل الخبرات⁽⁴⁾

خاتمة:

تبين لنا من كل ما تقدم أنّ مسألة الخريجين من الجامعات وخاصة فئة الدراسات العليا تأخذ أهمية ورعاية خاصة، ذلك أنّ الأساس في الانطلاقة العلمية المحكمة تقوم على أسس مبنية سلفاً على خطط ممنهجة وقواعد سليمة، فالعبرة ليست في الكم بقدر ما هي في نوعية المتخرجين وكفاءاتهم وقدرتهم على صنع القرار وبناء الاقتصاد، وبالتالي فإننا لا نستطيع تحقيق ذلك ما لم نغير من خطابنا التعليمي مراعين في ذلك مستوى كل مرحلة.

التهميش:

1/ وسائل وأساليب الإعداد التخصصي التربوي، عبد المقصود حامد وعبد الله فيصل الشمري، ندوة عضو هيئة التدريس في الجامعات العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، سنة 27 فبراير إلى 2 مارس 1993، ص3.

2/ المرجع نفسه، ص14.

3/ كيف نحقق نوعية عالية في الدراسات العليا، محمد مجيد السعيد، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 127، السنة: ديسمبر 1998م، ص163.

4/ ينظر: ندوة بعنوان: الحلقة الدراسية النقاشية، داخل حسن جريو، اتحاد مجالس البحث العلمي العربية، بغداد/ 1992م، ص 185.